دراسة لكتاب البهجة المرضية

في شرح الالفية للسيوطى

دكتور : محمود عثمان أبو سمره
مدرس بكلية آداب سوهاج ـ جامعة أسيوط .

إن بحثى الذى ألقيه بين أيدى علماء العربية وباحثيها يدور حول منهج عالمنا العلامة (جلال الدين السيوطى) فى كتابه : (البهجة المرضية فى شرح الألفية)

وهذا الكتاب ـ كما هو واضح من عنوانه ـ يتناول أبيات ألفية بن مالك بالشرح والتوضيح ويبرز جهود النحاة السابقين فى الدراسات النحوية والصرفية ويلخص لنا فى عبارة موجزة وأسلوب سهل ميسر قواعد النحو الدقيقة وأصوله الثابتة التى اعتمد عليها النحاة فى دراسة أساليب اللغة العربية الفصيحة ونصوصها الرائعة(١) .

وإننى أود ـ قبل أن ألقى بحثى ـ أن أتناول حياة عالمنا بشىء من التوضيح .

إن عالمنا هو العلامة عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر محمد بن سابق الدين(٢) وقد نسب إلى أسيوط لأن والده الكمال قد ولد بها ولأن أحد أجداده كان يعمل فيها بالتجارة وصاحب الأمير شيخون وبنى بها مدرسة ووقف عليها أوقافا لقد ولد هذا العالم الجليل ليلة الأحد مستهل رجب سنة ٨٤٩بمدينة القاهرة فى ظل أسرة كريمة ذات فضل وأدب وكان أفرادها وجهاء القوم ورؤساءهم ويقرر جلال الدين السيوطى أن والده فقط هو الذى خدم العلم وأفنى فيه عمره من بين أفراد أسرته الكريمة(٣)ويقرر عالمنا العلامة أنه أقبل على العلم منذ صغره وأنه حفظ القرآن وهو دون ثمان ثم أقبل بعد ذلك على بحر العلم يغترف منه قدر الطاقة وتعلم على أيدى شيوخ أجلاء كثر عددهم الأمر الذى يفسر لنا سعة علم عالمنا جلال الدين ورغبة فى عالمنا فى أن يزداد علمه وتتسع معارفه قرر أن يرحل فى طلب العلم ولذلك رحل إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب(٤) .

---

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهره ص ٣٣٥ ح ١

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٣٦ ح ١ تحقيق محمد أبو الفضل آبراهيم

(٣) حسن المحاضرة ح ١ ص ٣٣٦ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم

(٤) انظر مقدمة كتاب الاقتراح تحقيق الدكتور أحمد قاسم ص ١٥

وقد درس عالمنا العلوم الشرعية والعربية وحرص على أن يكون ذا قدم راسخة بها ومن العلوم التى أتقنها ونبغ فيها (علم النحو)وقد حرص عالمنا على أن يسهم فى الحركة الثقافية الملائمة للعصر فتصدر لإلقاء المحاضرات وصنف المصنفات وقد بلغت مصنفاته قدرا عظيما فى شتى العلوم والفنون .

ومن مؤلفاته التى ألفها فى علم النحو جمع الجوامع مع شرحه همع الهوامع وقد شرح ألفية بن مالك فى كتابه المسمى (البهجة المرضية فى شرح الألفية) وكتب حاشية على كتاب مغنى اللبيب سماها بالفتح القريب وشرح شواهد المغنى وألف رسالة أسماها (الأخبار المروية فى علم العربية) موضحا بها نشأة النحو ونظم ألفية على غرار ألفية بن مالك أسماها (الفريدة) ثم قام بشرحها فى مؤلف له أسماها (المطالع السعيدة فى شرح الفريدة) ومن مؤلفاته فى النحو والصرف نكت على ألفية بن مالك والكافية والشافية لابن الحاجب وشذور الذهب ونزهة الطرف لابن هشام . وألف السيوطى كتابا فى أصول النحو أسماه الاقتراح جمع فيه أصول النحو التى سبقه بها ابن الأنبارى وغيره من النحاة السابقين وقد صنف مؤلفا فى (الأشباه والنظائر النحوية) جمع فيه الفوائد والفرائد والألغاز والزوائد والمناظرات والمحاورات والفتاوى والواقعات والغرر واللامعات . واستمرت حياة عالمنا حافلة بجهوده العظيمة فى التدريس والتأليف ومال عالمنا فى أخريات حياته إلى حياة الزهد والورع والتقوى سارت على هذا النهج إلى أن وافاه الأجل المحتوم فى التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ١٩١١ من الهجرة .

(البهجة المرضية فى شرح الألفية)

إن كتاب (البهجة المرضية فى شرح الألفية (للعلامة جلال الدين السيوطى قد توفر لى منه مخطوطة وكتاب مطبوع بمطبعة المدارس تحت ملاحظة نظارة قلم المطبوعات سنة ١٢٩١ من الهجرة .

---

(٥) البقية ص ٣ ؛

وأود قبل الخوض فى توضيح المنهج أن أبين أن ألفية ابن مالك أرجوزة عدتها ألف بيت أو ألفان بناء على أن كل شطر بيت ولا يقدح ذلك فى النسبة وهى تضم مسائل النحو والصرف فى أسلوب منظوم مقرب إلى أذهان الطالبين وألفاظ موجزة قليلة الحروف كثيرة المعانى . وهذه المنظومة قد ألفها نظما الإمام أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك الطائى الجيانى المولد الدمشقى النشأة والمربى (١) وهذه المنظومة من أشهر مؤلفاته فى النحو والصرف وتعد دليلا قويا على رسوخ قدم ناظمها وعلو قدره فى علوم العربية .

منهج السيوطى فى بهجته المرضية

إن الناظر إلى هذا الكتاب يجد أنه كتاب مختصر موجز مؤلف فى النحو والصرف جمع فيه مؤلفه قدرا ليس باليسير من ثقافة السابقين فى علم العربية والنسخة المطبوعة تقع فى مائة وأربعين وثلاث من الصفحات وفى كل صفحة سبعة وعشرون سطرا .

وإن الناظر إلى اسم الكتاب يجد أنه مسجوع وهذه هى سمة العصر الذى عاش فيه عالمنا وقد سار عالمنا فى هذا على عادة أهل عصره ولم يكن هذا الكتاب بدعا بين كتب المؤلف بل إن عالمنا السيوطى قد اتخذ من العنوان المسجوع سبيلا إلى لفت الأنظار إلى جميع مؤلفاته هذا من ناحية العنوان .

أما من ناحية صلب الكتاب فإنه بدأه بمقدمة بدئت بحمد الله والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه وتابعيه ثم تلا ذلك قوله « إنه شرح لطيف مزج بألفية ابن مالك . ثم وصف كتابه بأنه مهذب المقاصد واضح المسالك يبين مراد ناظمها ويهدى الطالب إلى معالمها حاو لأبحاث منها ريح التحقيق تفوح وجامع لنكت لم يسبقه إليها غيره من الشروح »

---

(١) يقصد (النسب إلى ألف أو إلى (ألفين) لأنه يحذف عند النسب إلى المثنى أو المجموع جمع تصحيح للمذكر أو للمؤنث علامة التثنية وعلامة الجمع وملحق به ياء النسب مكسورا ماقبلها

(٢) بغية الوعاة ص ٥٣

وقال عنه أيضا « إنه سماه بالبهجة المرضية فى شرح الألفية » (٨) وإن الناظر منا إلى كتاب (البهجة المرضية) يلاحظ أن السيوطى قد مزج شرحه بأبيات الألفية ولم يكن يورد أبيات الألفية أولا ثم يتناولها بعد ذلك بالشرح كما فعل ابن عقيل المصرى المتوفى(٧٦٩ هـ) ولقد اعتد عالمنا جلال الدين السيوطى بهذا الشرح فقال عنه (إنه مؤلف كأنه سبيكة بمسجد أو در منضد)(٩)

وإن الناظر منا إلى شرح السيوطى لقول ابن مالك

ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا

يجد أنه لايذكر هذا البيت أولا ثم يتبعه بعد ذلك بالشرح وإنما نلاحظه يقول (ونعتوا بمصدر كثيرا) على تقدير مضاف (فالتزموا) لذلك (الإفراد والتذكيرا) له وإن كان المنعوت بخلاف ذلك كامرأة رضى وعدلين رضى »(١٠)

لقد شرح عالمنا البيت بأسلوب سهل مختصر يؤدى الغرض ويفى بالمطلوب.

ومن الأمثلة على ذلك شرح عالمنا العلامة لمسألة حذف النعت والمنعوت إنه يقول « (وما من النعت والمنعوت عقل) أى علم (يجوز حذفه) نحو وعندهم قاصرات الصرف»(١١)فلم أعط شيئا ولم أمنع أى شىء طائلا ولكن الحذف) فى النعت يقل) وفى المنعوت يكثر »

لقد تعرض عالمنا لمسألة حذف النعت والمنعوت وفى تقديرى أن هذا الشرح لهذه المسألة كان موجزا وأن هذا الإيجاز كان مخلا ولو أنه وضح أكثر لكانت الفائدة أجل وأعظم ومن العلامات البارزة فى بهجة السيوطى المرضية التعريفات إن عالمنا كان فى بعض الأحيان إلى (التعريف) بالمصطلح وكان يتناوله بالشرح والتوضيح وفى أحيان أخرى كان يتحدث فى الموضوع من غير أن يشرح (المصطلح) وبدون أن يتناوله بأى تبيين أو توضيح : (١٢)

(٨) البهجة المرضية ص ٢
(٩) نفس المرجع السابق ص ١٤٣
(١٠) البهجة المرضية ص ٨٦
(١١) سورة ص آية ٥٢
(١٢) البجة المرضية ص ٨٦

واذا عرف عالمنا مصطلحا وجدناه فى بعض الأحيان يلجأ إلى المنهج التحليلى الذى كان يقوم بتوضيح الموضوع وبيان أقسامه وفروعه الكثيرة وجدنا هذا واضحا عندما تعرض لتعريف النسب إنه قال عن النسب « هذا باب النسب ياء كيا الكرسى زادوا فى آخر الاسم للنسب وكل ما تليه كسرة وجب فقولهم فى النسب إلى أحمد أحمدى(١٣) .

وكان يتبع فى بعض الأحيان المنهج المنطقى الذى يعرف المصطلح تعريفا جامعا مانعا يحيط بكل صور الموضوع ويمنع ما عداها وهذا التعريف ليس من اختراع السيوطى وابتكاره بل هو منقول عن كتب السابقين وعن كتاب الكافية فى معظم الأحيان يقول مثلا فى تعريف الفاعل « وهو كما قال فى شرح الكافية المسند إلىه فعل تام مقدم فارغ باق على الصوغ الأصلى أو ما يقوم مقامه (فالمسند إليه يسم الفاعل والنائب عنه والمبتدأ والمنسوخ الابتداء وقيد (التمام) يخرج اسم كان (والتقديم) يخرج المبتدأ و (الفارغ) يخرج نحو يقومان الزيدان و (بقاء الصوغ الأصلى) يخرج النائب عن الفاعل وذكر (ما يقوم مقامه) يدخل فاعل اسم الفاعل والمصدر والظرف وشبهه .(١٤)

وانظر إلى تناوله لمصطلح الاشتغال فانك تجده يود التعريف الجامع المانع حين يقول « هو أن يتقدم اسم ويتأخر فعل أو شبهه قد عمل فى ضميره أو سببيه لولا ذلك لعمل فيه أو فى موضعه »(١٥)

وعالمنا بصنيعه هذا يستوعب ثقافة السابقين ثم يهضمها وبقدرته الفائقة يستطيع أن يتمثلها ثم يعيد كتابتها إلينا بأسلوب سهل موجز مختصر وإيجازه كان فى الأحيان لا يفى بالغرض ولا يصل إلى الهدف المرتجى المنشود .

وفى أحيان ثالثة كنا نجد عالمنا يمر بالمصطلحات مرور الكرام ولا يتناولها بأى تعريف انظر مثلا إلى تعريفه عند النداء إنه يقول « (وللمنادى الناء » أى

---

(١٣) البهجة المرضية ص ١٢٥

(١٤) البهجة المرضية ص ٤٣

(١٥) نفس المرجع السابق ص ٤٨

البعيد أو الذى « كالناء » كالنائم والساهى (يا وأى (بفتح الهمزة و) ءا (بألف بعد الهمزة كذا أيام ثم هيا) والهمز فقط للدانى أى للقريب و (وا (ائت بها لمن ندب أو (يا) رغير (و) وهو يا (لدى اللبس) بغير المندوب (اجتنب) بضم التاء »(١٦)وانظر إليه أيضاً وهو يقول «(هذا باب التعجب) وله صيغ نحو كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ... ، سبحان الله إن المؤمنين لا ينجس — . واهاً لليلى ... ... والمبوب له فى النحو صيغتان (١٧)وإن الناظر إلى ما أوردنا من نصوص يتبين أنه لم يكن يعرف المصطلحات فى بعض الأحيان ومن العلامات البارزة فى كتاب عالمنا جلال السيوطى اقتناعه (بنظرية العامل (التى سبق أن اعتنقها العلماء السابقون وقد رأى السيوطى مثل ما رأوا لقد رأى أن الذى يحدث الإعراب ويجلب علاماته الدالة على الرفع والنصب والجر والجزم هو العامل وإن الناظر إلى كتاب البهجة المرضية يلاحظ هذا واضحا إنه قد تحدث عن العلل للرفع فى المبتدأ والخبر فقال « (ورفعوا مبتدأ بالابتدا (وهو كونه معرى من العوامل اللفظية وقيل جعل الإسم أولا ليخبر عنه (كذلك رفع خبر بالمبتدأ) وحده على الصحيح الذى نص عليه سيبويه لأنه طالب له وقيل لأنه بالابتداء اقتضاهما فعمل فيهما ورد بأن أقوى العوامل وهو الفعل لا يعمل رفعين فما ليس أقوى أولى وقيل الإبتداء والمبتدأ وقال الكوفيون ترافعا أى كل منهما رفع الآخر وله نظائر فى العربية(١٨) .

وقال فى معرض حديثه عن الاستثناء « ما استثنت إلا مع تمام وإيجاب (ينتصب) بها عند المصنف وبما قبلها عند السيرافى وبمقدر عند الرجاج نحو فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس (١٩)ويقول فى معرض حديثه عن (التنازع) هذا باب التنازع ويسمى أيضا باب الإعمال وهو كما يؤخذ مما سيأتى أن يتوجه عاملان ليس أحدهما مؤكدا للاخر إلى معمول واحد متأخر عنهما نحو (ضربت

(١٦) البهجة المرضية ص ٩٢
(١٧) نفس المرجع السابق ص ٨٠
(١٨) البهجة المرضية ص ٢٤
(١٩) نفس المرجع ص ٥٨
(٢٠) نفس المرجع ص ٥٢ ومابعدها .

وأكرمت زيدا(٢٠)وعلماء المنهج الحديث يرون أنه لاعامل فى الحقيقة وإنما الذى دفع النحويين الأوائل اعتناق هذه الفكرة إنما هو تأثرهم بالجو الثقافى السائد الأمر الذى فرض عليهم أن يصطبغ تفكيرهم فى النحو وقواعده وأصوله بصيغة الفلسفة السائدة إنهم وجدوا أن بعض الكلمات مرفوع وبعضها منصوب وبعضها مجرور وبعضها مجزوم فأخذوا يبحثون عن السبب فى إحداث هذه الظواهر الإعرابية من رفع ونصب وجروجزم ونسبوه الى العامل وأثبتوا وجوده ودرسوه دراسة وافية وقعدوا له القواعد وأوجدوا له الأحكام (٢١)ومن العلامات البارزة فى كتاب البهجة خضوع مولفه لفكرة القياس ورغبته فى إثراء اللغة العربية وإعطاؤه مالم يسمع حكم ماسمع والمقيس حكم المقيس عليه وتأييده لما يذهب إليه بالعلل وكان يرى أنه يمكنه أن يأتى بأمثلة جديدة لم تسمع من قبل مقيسة على ما فصح من النصوص المسموعة انظر إليه حين يشرح الأسماء الموصولة العامة «وهكذا أى كمن ومابعدها فى كونها تساوى الذى والتى وفروعهما (ذو عند طيىء شهر) كما نقله الأزهرى . . . . . وبئرى ذو حفرت وذو طويت ويقال رأيت ذو فعل وذو فعلا وذو فعلت وذو فعلتا وذو فعلوا وذو فعلن »

إنه فى الأمثلة السابقة قاس على الشواهد الشعرية الفصيحة أمثلة جديدة لم تسمع وكان يقيس على الشواهد الفصيحة المتوفرة لديه وأهم هذه الشواهد :

أ ــ آيات القرآن الكريم .

ب ــ أحاديث الرسول عليه السلام .

حـ ــ أشعار الشعراء الذين يحتج بأشعارهم .

د ــ أقوال الفصحاء من العرب وحكمهم وأمثالهم .

أما آيات القرآن الكريم فانه استشهد بآيات القرآن التى تواترت قراءتها أو اشتهرت أو كانت مقروءة قراءة آحاد أو قراءة شاذة وقد أورد فى كتابه كل ذلك

(٢٠) نفس المرجع ص ٥٢ ومابعدها

(٢١) الدراسة الميدانية فى منهج النحاة العرب ص ٨٦ وهى رسالة الماجستير الخاصة بالباحث

(٢٢) البهجة المرضية ص ٢٠

بدون أن يوضح وجه استشهاده بها وكأنه يسوق الكلام لأناس ليسوا فى حاجة إلى توضيح وكان عندما يورد آية قرآنية للاستشهاد يوردها أحيانا مشيرا إليها بأنها من قول الله تعالى انظر إلى قوله « وذهب الكوفيون والأخفش إلى أنه (قد يرد) نيابة غير المفعول به مع وجوده كقوله تعالى « ليجزى قوما بما كانوا يكسبون»(٢٣)

ويقول أيضا فى معرض حديثه عن حذف المفعولين أو أحدهما إذا أول على المحذوف دليل إنه يقول« فان دل دليل فأجزه كقوله تعالى: (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) * (٢٤)

وفى مواضع كثيرة كان يورد آيات قرآنية ثم لايشير إلى أنها من قول الله تعالى أنظر إليه وهو يتكلم عن مجىء الحال شبه جملة تجده يقول « وقد يجىء موضعه ظرف أو مجرور متعلق بمحذوف وجوبا نحو رأيت القرب بين السحاب فخرج على قومه فى زينته » ** (٢٥)

ويتكلم أيضا عن الحال المؤكدة فيقول: (وعامل الحال) وكذا صاحبها (بها قد أكدا فى نحو لا تعث فى الأرض مفسدا) وأرسلناك للناس رسولا) *** (لآمن من فى الأرض كلهم جميعا)**** (٢٦)

إن السيوطى قد أورد نصين ذكر باولهما آية قرآنية دون أن يشير إلى أنها من قول الله وذكر بثانيهما آيتين قرآنيتين ولم يشر إلى أنهما من قول الله تعالى ومثل هذا يوقع فى حيرة ويضلل القارئ ويبدو أن المثقف العادى فى عصره كان حافظا للقرآن الكريم ولذلك ساق إليه آيات القرآن وهو يعتقد أنه لن يجد صعوبة فى معرفة أن الشاهد المسوق آية قرآنيه : : —

---

(٢٣) سورة الجاتية أية ١٤

(*) سورة القصص ٦٢ ، ٧٤

(٢٤) البهجة المرضية ص ٤١

(**) سورة القصص.

(٢٥) البهجة المرضية ص ٦٣

(***) سورة النساء ٧٩

(****) سورة يونس ٩٠

(٢٦) البهجة ص ٦٣

وقد أورد السيوطى بكتابه آيات قرآنية قرأها القراء السبعة ومن ذلك قوله بأن «(حتى) يرفع بعدها المضارع إن كان حالا أو مؤولا به واستدلوا على ذلك بقوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول (*)فى قراءة نافع وأن ينصب بعدها المضارع إن كان مستقبلا أو مؤولا به نحو (وزلزلوا حتى يقول الرسول) فى قراءة الستة »(٢٧) .

وقد أورد السيوطى فى كتابه آيات قرآنية قرئت فى الشواذ ونحن نعلم أن القراءات الشاذة قد أبعدها النحاة الأوائل عن مجال الاستشهاد ومن هذه الآيات قوله تعالى (الذى تساءلون به والأرحام)(**)بجر كلمة (الأرحام) عطفا على الضمير المجرور وهى قراءة شاذة لا يحتج بها ولا يقاس عليها وعنها قال شارح المفصل « أكثر النحويين قد ضعف هذه القراءة نظرا إلى العطف على الضمير المخفوض(٢٨)وقد قال أبو حيان فى بحره المحيط عن هذه الآية إن ابن عطية قال وهذه القراءة عند رؤساء نحويى البصرة لا تجوز لأنه لا يجوز عندهم أن يعطف ظاهر على مضمر مخفوض(٢٩) .

وعلى الرغم من شذوذ قراءة هذه الآية فان السيوطى استدل بها واتخذها نصا لا ستشهاده

ومن الآيات الشاذة فى قراءتها والتى اتخذها السيوطى شاهدا على جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول(٣٠)به قوله تعالى (قتل أولادهم شركائهم(***) بنصب) أولادهم بالمصدر قتل وعنها قال البصريون إنها قراءة ضعيفة قد وهم فيها القارئ(٣١)

(*) سورة البقرة ٣١٤
(٢٧) البهجة المرضية ص ١٠٦
(**) سورة النساء ١
(٢٨) شرح المفصل حـ ٣ ص ٧٨
(٢٩(البحر المحيط حـ ٣ ص
(٣٠) البهجة المرضية ص ٨٤
(***) سورة الأنعام ١٣٧
(٣١) الإنصاف ص ٢٥٣

ومن الآيات القرآنية التى قرئت قراءة شاذة قوله تعالى » سيعلمون غدا من الكذاب الأشر»(**)واستشهد بهذه الآية للتدليل على أن كلمة (شر)قد جاءت للتفضيل(٣٢) وقد حذفت منها الهمزة شذوذا لكثرة الاستعمال فهى شاذة قياسا لاستعمالا وانصرفت عن صيغة (أفعل) لفظا لا تقديرا

ومن الآيات القرآنية التى قرئت شذوذا قوله تعالى (ولات حين مناص)(***)لهم للتدليل على أنه لا بد أن يحذف أحد ركنى الجملة(٣٣) وفى هذه الآية رفعت كلمة (حين) على أنها اسم لات النافية أما خبر لات فمحذوف تقديره (لهم)

وكان يستشهد بآيات قرأها القراء السبعة ولا يحدد وجه الاستشهاد إنه أورد قوله تعالى (وجئتك من سبأ بنبأ يقين(*)مريدا كلمة (سبأ(فى معرض حديثه عن تنوين الممنوع من الصرف وكان من الواجب عليه أن يقول (فى قراءة من نون كلمة سبأ) .

ونجده أورد أيضاً قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا (**) فى معرض حديثه عن نصب المضارع بأن مضمرة جوازاً فى نظر البصريين لأنه عطف بأداه العطف (أو) على اسم خالص من التقدير بالفعل (**) وكان من الواجب عليه أن يقيد حديثه فيقول (فى قراءة من نصب الفعل المضارع « يرسل » ولكنه لم يفعل وهذا منه عدم دقة يمكن أن يكون سببها فى نظرى أن القراءة الشائعة على ألسنة الحافظين تنصب المضارع (يرسل) فأغناه هذا عن التقييد ومما استشهد به عالمنا وأفسح له المكان فى كتابه (البهجة)

(**) سورة القمر ص ٢٦
(٣٢) البهجة المرضية ص ٨٤
(***) سورة ص ٣
(٣٣) البهجة المرضية ص ٣٢
(*) سورة النمل ٢٢
(٣٤) البهجة ص ١٠٥
(**) سورة الشورى ٥١
(٣٥) البهجة ص ١٠٤

مخالفا بذلك علماء نا الأوائل (نصوص الحديث الشريف) ورفض علماؤنا الأوائل الاستشهاد به لأنه يروى بالمعنى ولأن معظم رواته كانوا أعاجم لا يستبعد عليهم اللحن ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى كتابه قوله عليه السلام . (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) فى معرض حديثه عن أن الفعل يمكن أن تلحقه حروف داله على التثنية والجمع كالتاء الداة على التأنيث ويقال سعدا وسعدوا والحال أن الفعل الذى لحقته هذه العلامة للظاهر بعد سند (٣٦) وأود أن أشير فى هذا الموضع إلى أن هذا الحديث بهذه الصورة قد حذف صدره وأصل الحديث (إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار (وعليه تكون جملة (يتعاقبون) صفة لـ (ملائكة) الواقع اسما لحرف النسخ (إن) والواو ضمير متصل لجماعة الذكور فى محل رفع على الفاعلية وهو عائد على الموصوف وليست حرفاً دالا على الجمع أما كلمة (ملائكة) الثانية فهى مرفوعة لأنها خبر لمبتدأ محذوف وليست فاعلا (٣٧) .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى استشهد بها وفيها ما يدل على أن الحديث الشريف قد يأتى بتعبير الراوى انظر إلى السيوطى حين تحدث عن (حاشا) الاستثنائية وذكر أنها لا تصحب (ما) ولما اعترض عليه بالحديث (أسامة أحب الناس إلى ما حاشا فاطمة (قال إن (حاشا) هذه ليست أداة استثناء بل هى فعل ماض بمعنى استثنى و (ما) الداخلة عليه نافية لا مصدرية وهو من كلام الراوى وفى رواية (ما حاشا فاطمة ولا غيرها) (٣٨) .

وأود أن أشير إلى أن الحديث الشريف لم يكن يستدل به البصريون فى مسائل النحو والصرف لأن الأحاديث تجوز روايتها بالمعنى ولأن رواتها كان معظمهم من الأعاجم (٣٩) .

---

(٣٨) البهجة المرضية ص ٦٠

(٣٩) خزانة الأدب حـ ١ ص ٤

وما كان يحسن من علماء البصريين أن يرفضوا الاستدلال بالأحاديث النبوية الثابتة النص المقطوعة النسبة إلى رسول الله . ولكنهم عمموا الرفض وهذا منهم غير طيب .

ومن النصوص التى أوردها السيوطى فى بهجته للاستشهاد بها على ما يورد من أقوال النحاة (الشواهد الشعرية) .

وإن الناظر إلى كتابه يجده فى بعض الأحيان مورداً الشاهد بشطريه غير منسوب لصاحبه . وفى نادر الأحيان يأتى بالشاهد الشعرى ذاكراً شطريه ومنسوباً إلى صاحبه .

وفى بعض الأحيان نجده يذكر شطراً وبعض الشطر الآخر ووجدناه فى معظم استشهاداته بالأبيات الشعرية يقتصر على شطر واحد من غير نسبة إلى صاحبه .

ووجدناه فى بعض الأحيان يأخذ من البيت الشعرى موضع الشاهد ولا يذكر اسم الشاعر ولا يوضح وجه الاستشهاد وإليك الأمثلة على ما أقول .

أولا : الشواهد الشعرية التى ذكرت بشطريها ولكنها لم تنسب إلى صاحبها منها قول الشاعر :

بأبه اقتدى عدى فى الكرم ومن يشابه أبه فما ظلـــم (٤٠)

فى معرض حديثه عن لغة النقص التى ترد عليها أب ـ أخ . حم ومنها قول الشاعر :

إن أبـــاهـــا وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتـــــاها ٤٠

فى معرض حديثه عن لغة القصر التى تتعرض لها نفس الكلمات السابقة الذكر

ثانيا : الشواهد الشعرية التى ذكرت بشطريها ونسبت إلى قائلها كانت نادرة منها قول للفرزدق : ـ

(٤٠) البهجة المرضية ص ٩

بالباعث الوارث الأموات قد ضمنت

إياهم الأرض فى دهر الدهاريز (٤١)

للتدليل على فصل الضمير للضرورة الشعرية مع إمكان اتصاله ومنها قول عامر الطائى :

فلا مزنة ودقت ودقـــها ولا أرض أبقل إبقالـــها (٤٢)

للتدليل على أن الفاعل الضمير الذى عاد على مجازى التأنيث قد جاء معه الفعل مذكرا فى ضرورة الشعر .

ومنها قول حسان :

لأنهم لا يرجون منه الاشفاعة إذا لم يكن إلا النبيون شـافع (٤٣)

للتدليل على أن المستثنى إذا تقدم على المستثنى منه يكون تابعا للمستثنى منه ومن الشواهد قول على رضى الله عنه

جزى الله عنى والجزاء بفضله ربيعة خيرا ما أعـــف وأكرما (٤٤)

للتدليل على حذف المتعجب منه إذا دل عليه دليل .

ثالثا : الشواهد الشعرية التى ذكر منها شطر وبعض الشطر الآخر منها قول الشاعر :

والتغلبيون بئس الفحل فحلهم فحـــــــــــــــلا (٤٥)

---

(٤١) نفس المرجع ص ١٥
(٤٢) البهجة ص ٤٤
(٤٣) نفس المرجع ص ٥٩
(٤٤) نفس المرجع ص ٨٠
(٤٥) نفس المرجع ص ٨٢

وقد سيق هذا البيت للتدليل على جواز الجمع بين الفاعل والتمييز ومنها قول الشاعر :

والذئب أخشاه إن مررت به وحدى٤٦

رابعا : الشواهد الشعرية التى ذكر منها المؤلف شطرا واحدا فقط وبدون أن ينسبه إلى صاحبه وهذا كان يحدث فى كثير من الاحيان ومن هذه الأشطار قول الشاعر

أبنى كليب إن عمى اللذا ٤٧

وقوله

هما اللتا لوولدت تميم ٤٧

ومن ذلك قول الشاعر

كجلمود صخر حطه السيل من عل ٤٨

وقول الشاعر

وبعد عطائك المائة الرتاعا ٤٩

خامسا : الشواهد الشعرية التى كان يذكر بعض شطر منها وهو موضع الشاهد منها قول الشاعر (سبقوا هوى

ومنها قول الشاعر

أودى بنى ٥٠

والأمثلة على ذلك كثيرة

---

(٤٦) نفس المرجع ص ٦٩
(٤٧) البهجة ص ١٩
(٤٨) نفس المرجع ص ٧٢
(٤٩) نفس المرجع ص ٧٥
(٥٠) نفس المرجع ص ٧٤

وإن الناظر إلى استشهاد السيوطى بالشواهد الشعرية يجده أحيانا يتناول الشاهد الذى أورده ابن مالك فى أرجوزته بالشرح والتوضيح

انظر إليه وهو يقول : « وأنشدوا عليه قول بعضهم (لا أقعد الجبن) لأجله (من الهيجاء) بالمد ويجوز قصره أى الحرب(ولو توالت زمر الأعداء) جمع زمرة وهى الجماعة »٥١ وكان السيوطى يأتى بالشواهد الشاذة ويفسح لها مكانا فى كتابه البهجة المرضية منها قول الشاعر

أنت تكون ماجد نبيـــــل ٥٢

لقد ذكره السيوطى فى معرض حديثه عن زيادة (كان) بين المبتدأ والخبر ومن الشواهد الشاذة قول الشاعر

. . . . . على كان المسومة العـــراب ٥٢

وقد ذكر هذا الشاهد فى معرض الحديث عن زيادة (كان) بين الجار والمجرور ومن الشواهد النادرة

. . . . فتى حتاك يا ابن أبى زياد ٥٣

لقد استشهد السيوطى بهذا الشاهد الشعرى فى معرض الحديث عن جر (حتى) للضمير

وكان السيوطى يتخذ من أقوال العرب المأثورة وحكمهم وأمثالهم مادة يستشهد بها على المسائل النحوية وهو فى ترديده لهذه الشواهد إنما يعيد ما سبق أن استشهد به النحاة السابقون بحيث يعتبر كتابه ملخصا مختصرا لجهود النحاة السابقين ومن هذه الأقوال قولهم؟ مررت برجل سواء والعدم٥٤ وقولهم (مارايت رجلا أحسن فى عينه الكحل منه فى عين زيد)٥٥ وقولهم (لله دره فارسا)٥٦

(٥١) نفس المرجع ص ٥٦
(٥٢) نفس المرجع ص ٣٠
(٥٣) نفس المرجع ص ٦٦
(٥٤) البهجة ص ٩١
(٥٥) نفس المرجع ص ٨٤
(٥٦) نفس المرجع ص ٦١

وقد أورد السيوطى فى بهجته عبارة ترددت فى كتب النحاة السابقين هى عبارة (أكلونى البراغيث) وقولهم امالا(٥٧) (وقد خضع هذا التعبير لتأويلات النحويين

وقد كان السيوطى يشتشهد بأبيات استشهد بها السابقون بدون أن يعرفوا مدى صحتها ودقتها وإلى أى حد هى موثقة لقد استشـهدبأبيات لا يعرف قائلها فى عرف الرواه منها قول الشاعر :

قلبى قلبى يدى مسور (٥٨)

إن هذا البيت من الأبيات المجهولة القائل

ومن الشواهد المجهولة القائل قول الشاعر

فمابك والأيام من عجب (٥٩)

ومن الشواهد التى لم ينسبها الرواة قول الشاعر

فلا أب وابنا مثل مروان وابنه (٦٠)

ونحن نرى أن علماء النحوالبصريين لم يكونوا يسمحون بالاستشهاد بالشواهد المفرده والشواهد المجهولة القائل والشواهد المنحولة وكانوا يقفون منها موقف الحذر

ولقد قلت إن عالمنا خضع كما خضع علماؤنا الأوائل لقواعد القياس الأمر الذى فرض عليه أن يحكم على مالا يوافق قوانين وقواعد قياسه بأنها شاذة أونادرة وأن يحكم على الشواهد التى توافق قوابين لقياس بأنها مقبولة وأنها تستحق أن يستشهد بها انظر إليه حين تحدث عن توكيد المضارع (جاز توكيد المضارع خاليا مما ذكروهو فى غاية الشذوذ ومنه قوله ليت شعرى وأشعرن إذا ماقربوها منشودة ودعيت وأشذ منه توكيد (أفعل) فى التعجب فى قول

فأحر به من طول فقر وأحرين

وأشذ من هذا توكيد اسم الفاعل

أقائلن أحضروا الشهودا (٦١) إن مثالا كهذا يبين مدى احترام السيوطى

---

(٥٧) نفس المرجع ص ٣١

(٥٨) نفس المرجع ص ٧٠ والخزانه شاهد ٩٣

(٥٩) نفس المرجع ص ٩٢ والخزان شاهد ٣٥٣

(٦٠) نفس المرجع السابق ص ٣٨ والخزانة شاهد ٢٦٣

(٦١) البهجة المرضية ص ١٠١

للقياس وقوانينه ومدى تحكيمه لقوانين القياس فى الشواهد والنصوص التى جاءت على ألسنة العرب للفصحاء وإن صادفت عالمنا شواهد لايشك فى صحتها أو فى أنها منسوبة إلى من يوثق بفصاحتهم وهى فى نفس الوقت مخالفة لقواعد القياس وجدناه يسير على خطا السابقين ويلجأ إلى التأويل ليجعل ماخالف القياس موافقا فارضنا من التراكيب مايجعله أهلها لأن يحكم عليه بالقبول انظر اليه وهو يقول وامنع هنا إيقاع) الجملة (ذات الطلب) وإن لم يمنع ايقاعها خبرا وإن أنت من كلام العرب(فالقول أضمر) نعتا (نصب نحو) جاء وا بمذق هل رأيت الذئب قط) أى مقول فيه هل رأيت (٦٢)ومن ذلك أيضا قوله وانو ضمير الشأن فى موهم إلغاء مافى الابتداء لقوله (وماإدخال لدينا منك تنويل) فالتقدير إخاله أى الشأن والجملة بعده فى موضع المفعول الثانى أو انو لام ابتداء معلقة فى كلام موهم أى موقع فى الوهم أى الذهن (إلغاء ما) أى الفعل (تقدما) على المفعولين كقوله إنى رأيت ملاك الشيمة الأدب تقديره إنى رأيت لملاك فحذف اللام « وابقى التعليق» ٦٣)

وقد خضعت بعض التعبيرات والأساليب العربية لتأويلات النحاة وتقديراتهم وذلك لقولهم (إمالا) أى (إن كنت لاتفعل غيره) ذكره فى شرح الكافية (٦٤)

وقد ورد هذا التأويل فى كتاب سيبويه (٦٥)

ونحن نعلم أن التأويل أمر ترفضه المناهج اللغوية الحديثة لأنه أمر ذهنى مفروض على التركيب اللغوى خارج عنه وكان السيوطى مشبعا بثقافة النحاة السابقين إنه

قرأ مؤلفاتهم وسار على نهجهم واتخذ من التعليل سبيلا يسند به قواعده ويؤيد به قوانينه وإن رجعت إلى كتابه (البهجة المرضية) وجدته مليئا بالعلل التى سبق أن وردت ، فى كتب السابقين ومن ذلك تعليله لتقديم ابن مالك للمبتدأ على الفاعل تبعا لسيبويه وأشار إلى أنه وجد من بين النحاة من قدم أحكام الفاعل على المبتدأ لقدقال السيوطى معللا ذلك« وذلك مبنى على القولين فى أن أصل المرفوعات

(٦٢) المرجع السابق ص ٨٦
(٦٣) البهجة المرضية ص ٤٠
(٦٤) نفس المرجع ص ٣١
(٦٥) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٩٢

هل هو المبتدأ أو الفاعل وجه الأول أن المبتدأ مبدوء به فى الكلام وأنه لايزول عن كونه مبتدأ وإن تأخر والفاعل تزول فاعليته إذا تقدم وأنه عامل ومعمول والفاعل معمول ليس غير . ووجه الثانى أن عامله لفظى وهو أقوى من عامل المبتدأ المعنوى وأنه إنما رفع للفرق بينه وبين المفعول به وليس المبتدأ كذلك» (٦٦)

وكان عالمنا العلامة فى عرضه لآراء النحويين السابقين يحسن العرض ويستوفى أقسام كل حكم إن كان ذا أقسام وكان ينسب كل حكم إلى صاحبه الذى نقله عنه وهذا يدل على سعة اطلاع وكثره علم .

انظر مثلا إلى قوله « (وكأرى السابق) أول الباب فى التغذية إلى ثلاثة (نبأ) ألحقه به سيبويه واستشهد نبئت زرعة والفاهة كاسمها يهدى إلى غرائب الأشعار لكن المشهور تعديتها إلى واحد بنفسها وإلى غيره بحرف الجر . وألحق به السيرافى (أخبر) كقوله وما عليك إذا أخبرتنى دنفا

وألحق به أيضاً (حدث)

أومنعتم ما تسألون فمن حدثتموه له علينا الولاء

وألحق به أبو على (أنبأ) كقوله وأنبئت قيسا ولم أبله كما زعموا أحيرا أهل اليمن وكذلك (خبرا) وألحقه (بأرى)السيرافى أيضا كقوله وخبرت سوداء الغميم مريضة ٦٧

إن القارىء للنص السابق من كتاب السيوطى يرى بوضوح أن الفعل (نبأ) مثل (أعلم وأرى) فى نصب المفعولات الثلاثة وأن الذى ألحقه هو سيبويه وقد ألحق السيرافى بهذه المجموعة ثلاثة أفعال هى (أخبر ــ حدث ــ خبر) وألحق أبو على بهذه المجموعة فعلا واحدا هو (أنبأ)

وانظر أيضاً إلى قول السيوطى « ومن ضمير الرفع مايستتر وجوبا بخلاف ضمير النصب والجر وذلك فى مواضع : فعل الأمر (كالفعل) ، والفعل المضارع

(٦٦) البهجة المرضية ص٢٣

(٦٧) البهجة المرضية ص ٤٢ ، ٤٣

المبدوء بالهمزة نحو (أوافق) والمبدوء بالنون نحو (نغتبط) والمبدوء بالتاء نحو (إذ تشكر) وزاد فى التسهيل اسم فعل الأمر كنزال وأبو حيان فى الارتشاف اسم فعل المضارع كأوه وبن هشام (فى التوضيح فعل الإستثناء كقاموا ما خلا زيدا وما عدا عمرا ولا يكون خالدا وأفعل التعجب ك (ما أحسن الزيدين) وأفعل التفضيل ك (هو أحسن أثاثا) وفيما عدا ذلك وهو الماضى والظرف والصفات مستتر جوازا (٦٨)٠

وإن الناظر إلى هذا النص يجد أنه استوفى كل صور الاستتار فى الوقت الذى نجد فيه بن مالك يورد فى ألفيته أربع صور فقط .

وقد اتخذ عالمنا السيوطى من التنبيهات والفروع والتتمات المتناثرة فى أرجاء بهجته سبيلا إلى استيفاء الأحكام انظر إليه حين تناول بالدراسة موضوع حذف المبتدأ والخبر إن ابن مالك صاحب الألفية المشروحة قد ذكر حالات حذف المبتدأ والخبر جوازا وحالات حذف الخبر وجوبا ولم يذكر حالات حذف المبتدأ وجوبا ولذلك وجدنا السيوطى يلجأ إلى ذكر تنبيه يقول فيه « يجب حذف المبتدأ فى مواضع » (٦٩)٠

وانظر إلى السيوطى حين تكلم عن الأفعال الناسخة التى تفيد معنى صار إنه ذكر أن (كان وظل وأضحى وأصبح وأمسى معنى صار نحو « وفتحت السماء فكانت أبوابا » (*) (**)« ظل وجهه سودا »(* * *) ولم يكمل الأمثلة حتى تكون الفكرة أوضح به إنه تعدى بل الأمر إلى أن يذكر أفعالا تشبه (صار) فى المعنى فقال (تتمة) ألحق بصار أفعال فى معناها وهى (آمن ورجع وعاد واستحال وقعد وحار وجاء وارتد وتحول وغدا وراح ذكرها فى الكافية »(٧٠)

---

(٦٨) البهجة المرضية ص ١٣ ، ١٤

(٦٩) نفس المرجع ص ٢٨

(*) سوره النبأ ١٩

(**) النحل ٥٨

(٧٠) البهجة ص ٢٩

إن السيوطى ذكر الأفعال ولم يذكر أمثلة أو شواهد توضحها ولو ذكر شواهد لكانت الفائدة أكثر ولعل ذلك الذى دفعه إلى ذلك هو اعتباره أن هذه البهجة ملخص فى نحو السابقين وهو فى هذه البهجة مختلف عنه فى همع الهوامع إنه أورد هذه الأفعال وذكر شواهدها وأور اختلافات النحويين التى دارت حولها وكان وكان ذا باع طويل عندما تناول هذا الموضوع فى همع الهوامع وكان السيوطى أمينا يعزو كل شيء إلى أصحابه حين قال « ذكرها فى الكافية » ويؤخذ على عالمنا أنه كان يسوق الأحكام ولا يتبعها بشواهد مؤيدة أو أمثلة موضحة فى بعض الأماكن وفى ظنى أنه فعل لأنه كان يوجه كلامه لأناس لهم سابق معرفة بالنحو فعلا ويعتقد أنهم لن يسألوه عن شواهد وفى بعض الأماكن كنا نجد السيوطى مقتصرا على أمثلة الألفية لأنها فى نظرة كافية وافية بالغرض وكان يؤيدها بالعلة انظر إليه حين يقول دوان تلا الاسم المعطوف فعلاً متصرفا مخبرا به عن اسم أول مبدأ نحو (هند أكرمتها وزيدا ضربته عندها) فاعطفن مخيرا بين الرفع على على الإبتداء والخبر والنصب عطفا على جملة (أكرمتها) وتسمى الجملة من هذا المثال (ذات وجهين) لأنها اسمية بالنظر إلى أولها فعلية بالنظر إلى آخرها وهذا المثال أصح كما قال الآبدى فى شرح الجزولية من تمثيلهم بزيد قام وعمرو كلمته لبطلان العطف فيه لعدم ضمير فى المعطوفة يربطها بمبتدأ المعطوف عليها إذ المعطوف بالواو يشرك المعطوف عليه فى معناه فيلزم أن يكون فى هذا المثال خبرا عنه ولا يصح الا بالرابط وقد فقدولعله يغتفر فى التوابع مالا يغتفر فى غيرها»(٧١) كان عالمنا فى بعض المواضع يعرض وجهة نظر السابقين من غير أن يدلى برأيه المسألة وهذا واضح فى قول السيوطى حين تعرض للعطف على الضمير المجرور إنه قال « وعود خافض لدى عطف على ضمير لازما قد جعلا » عند جمهور البصريين نحو«فقال لها وللارض»(*)«نعبد إلهك واله أبائك(**)(وليس عندى لازما) تبعا ليونس والأخفش والكوفيين لأن شبه الضمير بالتنوين لو منع من العطف عليه لمنع من توكيده والإبدال منه كالتنوين مع أن ذلك جائز بالإجماع ولأنه

(٧١) البهجة ص ٥٠

(*) سورة فصلت ١١

(**) سورة البقرة ١٣٣

لو كان الحال شرطا فى صحة العطف لم يجز « رب رجل وأخيه » لامتناع دخول (رب) على المعرفة كما تقدم من جوازه وأيضاً لنا السماع إذ قد أتى فى النظم والنثر الصحيح مثبتا كقراءة حمزة وبن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والنخعى والأعمش وغيرهم « الذى تساءلون به والأرحام وحكاية قطرب « ما فيها غيره وفرسه وإنشاد سيبويه فما بك والأيام من عجب (٧٢)

ومثل هذا التعليل موجود بكتاب سيبويه ولكنه يذكر وجهة نظر البصريين التى توجب إعادة ما اتصل بالضمير المجرور إن سيبويه يقول ناقلا عن أستاذه الخليل «إنه لا يجوز العطف على المضمر المجرور الا بعد إعادة الخافض فلا يجوز (مررت به ومحمد) بل لابد أن يقال (مررت به وبمحمد) وعلل لذلك بأن الضمير شبيه بالتنوين ولذلك لا يجوز العطف عليه حتى لوا كد فلا يجوز (مررت به هو ومحمد) وكان اتصال المجرور بجاره أشد من اتصال الفاعل المضمر بفعله»(٧٣)

وقد أفسح السيوطى فى كتابة البهجة للهجات القبلية ووجدناه يتعرض للغات فى بعض الكلمات وفى بعض الأحيان كنا نجده ينسب هذه اللغات وفى بعضها الآخر لا ينسبها المهم هو أننا وجدنا ثقافته اللغوية الواسعة ذات أثر فى كتابه البهجة المرضية إنه يقول « إن كلمة (اسم) فيها ست لغات منظومة فى بيت نصه (اسم بضم أول والكسر مع همزة وحذفها والقصر) وتذه اللغات عددها ست لغات»(٧٤) ويقول « إن اسم الأشارة (اولى) يأتى منصوبا على لغة تميم وممدودا فى لغة الحجازيين (٧٥)

---

(٧٢) البهجة ص ٩٢
(٧٣) الكتاب ح ١ ص ٣٨٩
(٧٤) البهجة ص ٧
(٧٥) المرجع السابق ص ١٨

ويقول « ذو عند طيئ » (٧٦) ويقول « ولعل ولا يجربها الاعقيل ومتى ولا يجر بها إلا هذيل » (٧٧).

وفى ظنى أن خلافات النحويين ترجع إلى أن نحاتنا لم يقتصروا على جهاز لغوى واحد وفى مرحلة زمنية واحدة ولو فعلوا ذلك لجنبونا كثيرا من المشاق وإننى أقرر بعد كل هذه الوقفة إن عالمنا غزير العلم وأنه اطلع على معظم كتب السابقين وأنه تمثلها واستطاع أن يخرج تناجا علميا يشهد له بالتفوق وطول الباع ولئن كان الرجل محتاجا فى بعض أحكامه إلى الدقة إنه كان فى معظمها ولئن كان الرجل ناقلا ثقافة السابقين فى دراسات اللغة إنه كان بحق عظيما حين حفظ لنا تراث السابقين ونقله إلينا بأمانة يشكر عليها .

---

(٧٦) نفس المرجع السابق ص ٢٠

(٧٧) نفس المرجع ص ٦٥